يقظتها هائلة مروّعة . وكان هذا البعض أول من ذهب ضحية هذا الحلم فعسى ان تكون هذه آخر صاعقة تنقض على البلاد فيعقبها شروق الشمس. وتعود مصر الى الرخاء والصفاء

محادثة شبح [1]

عن اصل الحروف الهجائية

كنت اكتب منذ زمان طويل في سكون الليل وكان المنور (غطاء القنديل) يرسل على المنضدة ضوء القنديل ويبقي الظلام منتشراً على الكتب الموضوعة على طبقات تعلو الواحدة منها الاخرى في جهات الغرفة الاربع . وكانت النار الموشكة أن تنطفئ تبدو خلال الرماد كأنها شذرات من الياقوت. وكان دخان التبغ المهيج يمتزج بهواء الغرفة ويزيده تكثفاً وامامي لفافة من التبغ في قدح على كومةٍ من الرماد يرتفع دخانها اللطيف الازرق ارتفاعاً عمودياً . وكان شكل الظلمة في تلك الغرفة سرياً لأن الجالس فيها يشعر شعوراً مبهماً بروح تلك الكتب الملقاة في موضعها وقد سكن قلمي بين انامليّ كأنّ النعاس قد عبث باعطافه فجعلت اعمل الروية في امور قديمة العهد واذا بشخص غريب برز من دخان لفافتي كما يبرز من دخان العشب السحري . وكان شعره متجعداً ، وعيناه

---

(١) من وضع أناطول فرانس الكاتب الفرنساوي المشهور وتعريب الياس أفندي طنّوس الحويّك الكاتب المجيد

نجلاوين براقتين، وانفه اقنى، وشفتاه غليظيين، ولحيته سوداء متجعدة على الزي الأشوري، ولونهُ نحاسياً فاتحاً ، وقد طبعت على محياه علائم الدهاء والميل مع الهوى ميلاً عنيفاً ، ودلّ شكل جسمه الربعة القامـة ولباسه الفاخر على انهُ من اولئك الاسيويين الذين كان الاغريقيون يطلقون عليهم اسم بربر. وكان لابساً على رأسهِ قبعة زرقاء مصنوعة على شكل سمكة ترصعها النجوم ، ومرتدياً ثوباً ارجوانياً موشىً بصور الحيوانات وحاملاً باحدى يديهِ مجذافاً وبالاخرى ادراجاً . فلم اضطرب عند رؤيته لاعتقادي ان ظهور الاشباح العديدة في المكاتب أمرٌ طبيعي.. ألا تظهر اشباح الموتى في العلامات التي تحفظ ذكرها ؟ ودعوت الغريب الى القعود فنبذ دعوتي وقال :

ارجو منك أن تدعني وشأني ولا تعتبرني حاضراً في هذا المكان فلقد اتيتك لأنظر ما تكتبه على هذا الورق العاطل لأني أسرُّ بذلك . واعلم ان الافكار التي تعبّر عنها عليه لا تهمني البتة وانما يهمني جدًّا منظر الحروف التي ترقمها عليه فانا اعرفها وان يكن قد درج على استعمالها ثمانية وعشرون قرناً وطرأ عليها تغيرٌ ذو بال . وانا اعرف هذه الباء التي كانت في ايامي تدعى « بيت » ومعناها بيت او منزل وهذه اللام التي كنا نسميها « لامد » لمشابهة شكلها لشكل الحمة . وهذه الجيم مشتقة من الحرف الذي كان يقال له « جمل » في حروفنا الهجائية ومعناه عنق البعير . وهذه الالف مشتقة من الفنا وهي على شكل رأس الثور . واما الدال التي اشاهدها امامي فانها على مثال « دالث » المأخوذة عنها تمثل تماماً

شكل مدخلٍ مثلث الزوايا لخيمة مضروبة في رمال الصحراء ان انت لم تجعل محيط تلك العلامة الدالة على عيشة البدو القديمة مستديراً برسمك خطاً منحنياً . لقد غيرتم «الدالث» وسائر حروفي الهجائية ولكنني لا انحي عليكم باللائمة على ذلك لانكم لم تفعلوه الاّ حباً بالايجاز والاسراع لاعتباركم قيمة الوقت فليس الوقت سوى التبر والماج وريش النعام . ان الحياة قصيرة ولذلك يقضى على المرء أن يزاول التجارة ويركب مركب الاسفار دون أن يضيع دقيقة واحدة ليتسنى له أن يصيب الثروة ويصل الى حد الشيخوخة وهو رانعٌ في بحبوحة الهناء ونائلٌ نصيبه من الاحترام

فقلت له : يا سيدي يبين لي عند رؤيتي اياك وسماعي كلامك انك من اولئك الفينيقيين القدماء

فاكتفى بان يجاوبني قائلاً : انا قدموس او شبح قدموس

فقلت له : بناءً عليه انك لست موجوداً وجوداً حقيقياً فانت اختلاقي ورمزي وان تصديق كل ما قاله الاغريقيون عنك يعدُّ من رابع المستحيلات فهم يروون انك بطشت على عدوة ينبوع آريس بتنين كان يقذف النيران من شدقيه، وانك قلعت اسنان ذلك الوحش وغرستها في الارض فتحوّلت بشراً . ان هذه الرواية من باب الاساطير وانت يا سيدي شخص مختلق

من المحتمل أن اكون قد صرت كما تقول مع تعاقب الاجيال وان يكون اولئك الاولاد الكبار الذين تسميهم اغريقيين قد قرنوا بذكري روايات ملفقة . اني اظن ذلك الأمر ولكنني لا اكترث لهُ ولا اهتم بما

اعتقد بي الناس بعـد موتي . فمخاوفي وآمالي لم تكن لتمتدّ الى ما وراء هذه الحياة التي يتنعم بها الناس على الارض والتي افهمها الآن دون سواها ، ولا اسمّي حياةً الطواف كشبحٍ في غبار المكاتب، والظهور بشكلٍ مبهم للمسيو ارنست رينان او للمسيو فيليب برجه لخالة الشبحية هـذه تزيد كآبتي لأني قضيت في الدنيا حياةً سداها النشاط ولحمتها تتميم الواجبات ولم اكن ألهو بغرس اسنـان الافاعي في الحقول البيوسيانية اللهمّ ما لم تكن تلك الاسنان عبارة عن البغض والحسد اللذين غرسهما غناي وقوتي في نفس رعاة سيترون . وقد انفقت اياي في الاسفار وسخرت في جميع اللجج وانجعت جميع الامصار وانا راكب متن سفينتي السوداء الموضوع على جؤجؤها مسخٌ احمر هائل يحرس كنوزي ويرصد الكبيرات السبع المجوّلات في الفضاء بزورقهنّ اللامع ويهديني بتلك النجمة الثابتة التي كان الاغريقيون يسمونها الفينيقية اكراماً لي . وقد انطلقت للاتيان بالذهب من «الـكلشيد» والفولاذ من «الشاليب» واللآلئ من «اوفير» والفضة من «طارطس» واخذت من «البيتيك» الحديد والرصاص وسلفور الزئبق والعسل والشمع والزفت واجتزت حدود الدنيا وتوغلت في غمام المحيط حتى انتهيت الى جزيرة البريطانيين القائمة وعدت منهـا شيخاً بيّض الدهر لمتهُ ومعي مقادير وفيرة من القصدير الذي ابتاعه مني المضريون واليونانيون والايطاليون بمبالغ من النضار توازي زنته زتتها . وكان البحر المتوسط في ذلك الحين يعتبر بحيرة لي فشيدت على سواحله المهجورة مئات من المحلات التجارية . ولم تكن «طيبة» تلك المدينة المشهورة سوى

منيع أخزن فيه ما كان لديَّ من الذهب وقد لقيت في بلاد اليونان قوماً متسكعين في دياجي الهمجية ، مسلحين بقرون الوعل والحجارة المحددة فاعطيتهم النحاس وكان انهم عرفوا بفضلي جميع الفنون

وكان يظهر في عينيه وفي كلامه قسوة جارحة فاجبته بكلام خالٍ من الحب :

انك كنت تاجراً موصوفاً بالنشاط والذكاء ولكنك لم تكن تحجم عن اتيان المنكر وكنت تتصرف عند سنوح الفرصة تصرف قرصان حقيقي . وحين كنت تنزل الى البر في ساحلٍ من سواحل اليونان او في جزيرةٍ من الجزائر كنت تعمد الى بسط ادوات الزينة والمنسوجات الثمينة على اليابسة ، وحين كانت فتيات تلك الانحاء ينجذبنَ انجذاباً لا يقوينَ على دفعه ويأتينَ وحدهنَّ بغير معرفة والديهنَّ لرؤية تلك السلع كأن بحارتك يخطفون اولئك العذارى اللواتي كنَّ على غير جدوى يطبّقنَ الفضاء باصوات الاستغاثة ويولونَ منتحبات ويلقونهنَّ مكتوفات مذعورات في قعر سفائنك واكلين حراستهنَّ الى ذلك المسخ الاحمر . ألم تسبِ أنت وذووك « إيو » الصبية ابنة ايناخوس الملك لتبيعوها في مصر ؟

— من المحتمل ان يكون هذا الامر قد جرى فان ايناخوس الملك هذا كان زعيم قبيلة صغيرة من البربر وكانت ابنته بيضاء البشرة ذات لطف ورواء ولا يخفى ان العلاقات بين القوم الهائمين على وجوههم في مجاهل الهمجية، والقوم المستنيرين بمشكاة التمدن هي هي عينها في كل زمان

— حسناً قلت ولكن الفينيقيين ذويك قد ارتكبوا في العالم سرقات لم يسمع بمثلها فانهم لم يحجموا عن سرقة الديناميس ونهب المدافن المصرية ليزينوا جبانات « جبيل » بما يعثرون عليهِ فيها

— بعيشك يا سيدي قل لي أمثلك يعنف انساناً أكل الدهر عليه وشرب كان « صوفوكل » يسميه قدموس العتيق ؟ لقد نسيت اني اكبر منك بثمانية وعشرين قرناً قبل ان يمضي علينا اكثر من خمس دقائق ونحن نتحدث في غرفتك . فاعلم يا سيدي العزيز اني رجلٌ كنعانيٌّ عتيق فلا ينبغي لك أن تشدد عليَّ النكير من جراء بعض صناديق من المومياات وبعض فتيات همجيات مسبيات من مصر او من بلاد اليونان وقد كان الأشبه بك أن تعجب بقوة ذكائي ومحاسن صناعتي . لقد حدثتك عن سفائني واستطيع أن اريك قوافلي شاخصةً الى اليمن للإتيان بالبخور والمرّ والى حاران للمجيء بالحجارة الكريمة والبهارات والى الحبشة لجلب العاج والابنوس ، ولم تقف همتي عند هذا الحد من المتاجرة والمقايضة بل كنت صاحب معامل معروفاً بالحنكة في زمن كان في اثنائه العالم المحدق بي غارقاً في لجة الهمجية . وكنت بصفة كوني من علماء المعادن والصباغين والزجاجين والصاغة استعين بما أوتيتهُ من الدهاء على مزاولة فنون النار هذه الغريبة الى حدٍّ يجعل المرء يخالها سحرية . انظر الى الكؤوس التي نقشتها وتعجب مما للجوهري الكنعاني العتيق من الذوق السليم . ولم تكن خبرتي في المسائل الزراعية مما يستهان بهِ فاني صيرت تلك الارض الضيقة المحصورة بين لبنان والبحر جنة خضراء ولا تزال آثار الاحواض

التي بنيتها فيها قائمة حتى يومنا هذا . وقد قال احد علمائكم : « ان الكنعاني دون سواه يقدر أن يبني معاصر خالدة » اعرف قدموس العتيق حق المعرفة واعلم اني انتقلت بشعوب البحر المتوسط من العصر الحجري الى العصر النحاسي وقد علّمت الاغريقيين مبادئ جميع الفنون واعطيتهم بدلاً من الحنطة والخمرة وجلود الحيوانات التي جاؤوني بها كؤساً يتعانق عليها الحمام ودمى من الخزف ومنذ ذلك الحين نشطوا الى نسخها وترتيبها على ذوقهم . وفي آخر الأمر اعطيتهم حروفاً هجائية لم يقدروا بدونها أن يحددوا ويحصروا افكارهم التي تخلب لبك . هذا ما فعله قدموس العتيق وهو لم يفعله حباً بالجنس البشري او رغبة في مجدٍ زائل بل حباً بالكسب والاستفادة الحقيقية الممكن لمسهما باليد . وقد فعله املاً بحشد الثروة وطمعاً بشرب الخمر في شيخوخته في كؤوس من الذهب على مائدة من الفضة بين غانيات بيض الوجوه يرقصنَ رقصاً يثير الشهوات من مرابضها ويعزفنَ على القيثارة عزفاً يرنح المعاطف لأن قدموس العتيق لا يؤمن بالصلاح ولا بالفضيلة وهو يدري ان البشر اشرار وان الآلهة وهم أقوى من البشر شرٌّ منهم . وهو يخافهم ويبذل المجهود لتسكين غضبهم بالقرابين الدموية ولا يحبهم ابداً لأن الأنانية متسلطة عليه كل التسلط . وهاءنذا اصف لك ذاتي على ما انا عليه في واقع الحال واعتقد اني لو لم اجرِ وراء ملاذ الحواس القوية ما كنت قد سعيت لجمع المال واخترعت الفنون التي لا تزالون تتنعمون بها في هذا العصر . وحيث لم يكن لك يا سيدي العزيز عقلٌ كافٍ تستطيع بهِ أن تصير تاجراً وحيث

انك قد اخترت مزاولة الكتابة سالكاً فيها مسلك الاغريقيين وجب عليك أن تحترمني احترامك للآلهة لأن لي الفضل عليك بالحروف الهجائية التي تستعين بها على الكتابة ، فانا مخترعها ولا يخفى عليك اني لم ابتدعها الاَّ لترويج تجارتي دون أن يبدر الى وهمي ما سيكون لتلك الحروف من الشأن في العالم الادبي . وكان يعوزني لوضع تلك العلامات اسلوب بسيط وقريب المتناول وودت من صميم الفؤاد لو كنت استطيع اقتباسه من جيراني الذين تعودت ان آخذ عنهم كل ما لاأعني لأن مسألة الاصول لم تكن عندي أمراً يعتدُّ به . فان لغتي هي لغة الساميين ونحتي تارة بابليٌّ وتارة مصريٌّ ولو كان ثمت خطٌّ جميل لكنت اكتفيت مؤونة الاختراع في هذا الموضوع ولكن لم يكن يسدُّ مسدَّ حاجاتي الخط الهيروغليفي المستعمل عند الشعوب التي تسمونها الآن حطية ولا تعرفونها ولا الخط المقدس عند المصريين فان ذينك الخطين كانا على جانب عظيم من التعقيد وكانت كتابتهما بطيئة جدًّا وهما من الخطوط التي يُفضل نقشها على جدران الهياكل والرموس على رقمها على ادراج التاجر . فالخط المصري وان يكن مختصراً ومنحنياً قد بقي له من مثاله الاصلي شيءٌ من الثقل والارتباك والتردد لان الاسلوب بجملته كان فاسداً . وبقيت الهيروغليفية المختزلة هيروغليفية اي مبهمة ابهاماً هائلاً . وأنت تدري كيف كان المصريون يخلطون في الهيروغليفية المطولة والهيروغليفية المختصرة وبين العلامات المعبرة عن الافكار والعلامات المعبرة عن الاصوات . وأنا بفضل دهائي اخترت اثنتين وعشرين علامة من تلك العلامات

الكثيرة العدد وصنعت منها حروفي الهجائيـة الاثنين والعشرين وهي حروف اي علامات يقابل كل منها صوتاً مفرداً وتنشأ عن مجموعها الداني المنال واسطة لرسم جميع الاصوات رسماً مدققاً . ألم يكن عملي هذا معدوداً من باب البراعة والتفنن ؟

— أجل ان عملك كان ولا مراء معدوداً من باب البراعة والتفنن اكثر مما تتوهمه فيُقضى علينا والحالة هذه ان نقدم لك هدية كبيرة القيمة لأنه بغير الحروف الهجائية لا يوجد علامات مضبوطة تعبّر عن الكلام ولا انشاء ولا تعبير عن أفكار دقيقة ولا تجريد ولا فلسفة سامية المعاني . فالتصوّر بانّ «پاسكال» كتب سفره المنون باسم (بروڤنسيال) بحروف مسمارية لا يقلُّ استهجاناً عن التصور بان تمثال «زوس الاولمبي» نحتته فقمة. فالحروف الهجائية الفينيقية التي اخترعت لاجل مسك الدفاتر في التجارة اصبحت في المعمورة كلها اداةً للفكر تامةً لا يستغنى عنهـا وان تاريخ ما طرأ عليهـا من التغيير مرتبطٌ ارتباطاً متيناً بتاريخ العقل البشري وتقدمه وان اختراعك وان لم يكن كاملاً يعتبر آيةً في الجمال وعظيم القيمة فانت لم تخطر على بالك الحروف الصوتيـة التي اخترعها الاغريقيون البارعون المتفننون الذين قسم لهم في هـذا العالم ان يبلغوا بكل شيء الى درجة الـكمال

— اني اقتبست عادة سيئة وهي ان اخلط الحروف الصوتية بالحروف الساكنة. ألم تلاحظ هذا المساء ان قدموس العتيق يتكلم قليلاً من حلقه؟

— اني اصفح له عن هذا الأمر واغضي الطرف ايضاً عن سبيهِ « إيو »

العذراء لأن ايناخوس والدها كان زعيماً للبربر حاملاً صولجاناً من قرن الوعل نحتتهُ مديةٌ من الصوان واتغافل عن تعلّيمهِ البيوسيانيين المساكين الفضلاء الرقص الخلاعي الذي كانت الباكانات يزاولنهُ واتجاوز عن كل هفوة ارتكبها لأنه جاد على اليونان والعالم طرًّا باثمن تعويذة أعني بها الحروف الهجائية الفينيقية الاثنين والعشرين وقد اشتقت من هذه الحروف الاثنين والعشرين جميع الحروف الهجائية في الدنيا . ولا يجري في وهم الناس فكرٌ على سطح البسيطة الاَّ وتحدده وتحفظه. فمن حروفك الهجائية يا قدموس الفاضل انبثق الخطان الاغريقي والايطالي اللذان خرجت منهما جميع الخطوط الاوروباوية . ومن حروفك الهجائية ايضاً نشأت جميع الخطوط السامية من الارمنية والعبرانية الى السريانية والعربية وان الحروف الهجائية الفينيقية نفسها امٌّ للحروف الحِمْيَرية والحبشية وسائر الحروف الهجائية في اسيا الوسطى كالزند والبهلوي والحروف الهجائية الهندية المشتقة منها اللغة الدفاناغارية وجميع الحروف الهجائية في اسيا الجنوبية. فسقياً له من غنىً طائل ورعياً له من نجاح عام فلا يوجد الآن في جميع اصقاع المعمورة خطٌّ واحد غير مشتق من الخط القدموسي . وكل من يكتب كلمةً واحدة في هذه الدنيا يعترف بفضل التجار الكنعانيين الأقدمين . وهذا الفكر يجعلني اسدي لك اوفر الشكر والاحترام يا حضرة السيد قدموس ولا ادري كيف اقدّر هذه النعمة حق قدرها بقضائك ساعة من هذا الليل في غرفتي يا بعل قدموس يا مخترع الحروف الهجائية

— يا سيدي العزيز اعتدل في اظهار حماستك واعلم اني مبتهج كل الابتهاج باختراعي هذا الطفيف . فليس في زيارتي لك ما يجعلك تفتخر متباهياً لأني صرت أتبرم تبرماً يحبب اليّ الموت منذ الحين الذي أصبحت فيهِ شبحاً وهمياً ولم أعد أبيع قصديراً ولا تبراً ولا عاجاً واضطررت على هذه الارض التي يطأ فيهـا المسيو ستانلي عن بعـد مواطئ قدميّ الى التحدث من حين الى آخر مع بعض العلمـاء او الفضوليين الذين يهمهم أمري . والآن يخيل اليّ اني سامع صياح الديك فاودّعك وانصح لك بان تسعى لحشد الثروة لأن الخير الوحيد في هذا العالم ملاكه الغنى والقوة

قال هذا الكلام وتوارى عن نظري وكانت ناري قد خمدت وبدأت أشعر ببرودة الليل وصداع أليم　　الياس الحويّك

شيء عن الفن

لقد عرف الانسان الفنون قبل ان عرف العلوم ، لأن مخيّلته اشتغلت قبل تنبّه افكاره. المخيلة ضيف تائه على الارض وهي اقوى القوى الادبية . حركتها لا تبطل ابداً في الحياة ، بل هي كالقلب تشتغل دائماً وعملها مستمر متواصل في النوم وفي اليقظة . فيها تحفظ تذكارات الماضي وآثار ما تنقله اليها الحواس من مناظر واصوات وانغام وروائح وتأثيرات ، ومن مزيج هذه التذكارات والآثار تتكوّن اصول الفنون ، فيأتي التصوّر والابتكار عاملاً في توسيعها ، وزيادة فروعها واتقان كمالاتها